مسجـــد ومشهـــد رأس الإمـــام الحســـين

عليه الســـلام في بعلبـــك

الشيخ جعفر المهاجر

طُبـع عـــلى نفقـة الحـــاج محـمـد عـلي عـواضـــة

ليُـوزّع مجـانـاً

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه عُجالة وضعتها على مسجد ومشهد رأس الإمام الحسين عليه السلام في «بعلبك» ابتغاء ترشيد النقاس حوله، ووضعه في إطاره الصحيح. وهو نقاش لم يكن ضرورياً أصلاً. فالمساجد لله، وليست أحد من دونه. لكنه بعد حصل، فقد صار من اللازم ترشيده وإسناده وتحريره من العشوائية والأغراض.

الشكر لله سبحانه، الذي لا ينبغي أن سيبق شكره شكرُ أحد من عباده، ثم الشكر للأخ البار المحسن الحاج محمد علي عواضة، لما أنفق عاى طباعة ما حرّرناه، ليوزّع مجاناً.

اسأل المولى سبحانه أن ينفع به. وأن يجعل عملنا وعمل الباذل على طباعته خالصاً لوجهه. وله الحمد أولاً وآخراً.

جعفر المهاجر

١ موقع المسجد

في مدينة «بعلبك» مسجد قديم خَرِب. هو، في وضعه هذا، أحد الشواهد التاريخية الباقية، ذات الدلالات العديدة، على ما كان من أمر المدينة وأهلها في سالف الزمان. مما ضاع ذكره بتوالي العصور. ولكنه، أولاً وقبل كل اعتبار، مسجد مهجور. من وظيفة وواجب كل مسلم قادر، أن يعمل على تعميره وإعماره. بنيّة خالصة وقلب سليم.

موقع المسجد إلى جانب البركة، المتكوّنة من نبع رأس العين المعروف. تدل الخرائب الباقية منه على عظمة وجلال. والملاحظ أنه، خلافاً لكل المساجد القديمة في المدينة، فإن الأحجار المستعملة في بنائه أصلية. أعني أنها غير منتزعة من الآثار القديمة. التي تكثر في المدينة

وحولها، وعلى رأسها قلعتها الشهيرة. بل هي فيما يبدو، مقتطعة من المحاجر المحليّة، ومنحوتة بما يتناسب مع هندسة المسجد.

٢ ـ وصف المسجد

مساحة المسجد الإجماليّة ألف وخمسمائة وسبعة وستون متراً مربعاً (75، 45× 25، 34). وتخطيطه من ثلاثة أقسام.

القسم الأول: بيت الصلاة. في جهة القبلة طبعاً. مساحته أربعمائة وثلاثة أمتار مربعة (32× 60، 12) أي ربع مساحة المسجد الاجمالية تقريباً. وهو عبارة عن رواقين. عرض كل منها زهاء الستة أمتار. يفصل ما بينهما ستة أعمدة بموازاة حائط المسجد القبلي. والأعمدة تحمل سبعة عقود. والمحراب ستوسط الحائط

الجنوبي . وجسمه بارز خارج حائط القبلة .

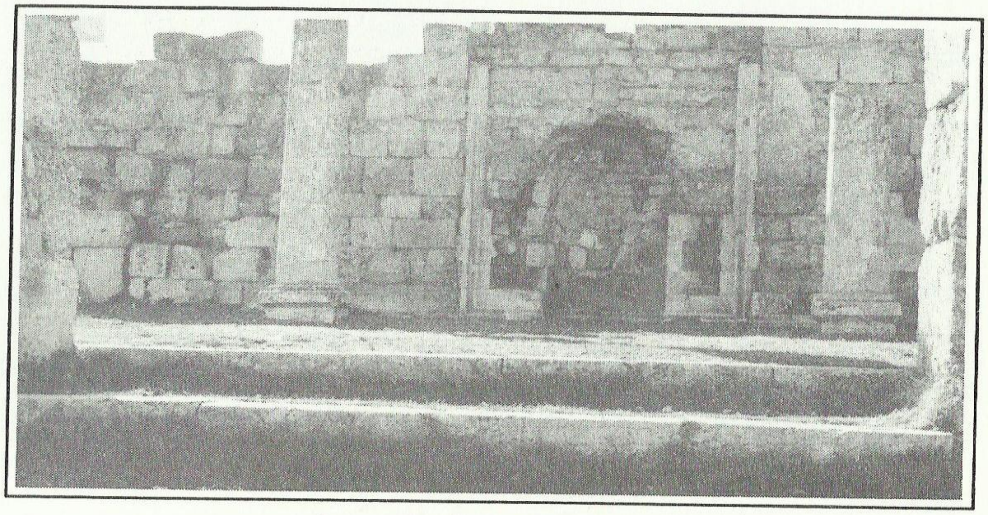

بيت الصلاة والمحراب

وتوجد آثار منبر حجري إلى يمين المحراب . والجدير بالملاحظة ، أن ليس في هندسة المسجد ما يدل على أنه كان له مأذنة . ولا أثر لها في خرائبه الباقية . مع أن جسم المأذنة وأساسها يكون أمتن بناء وأوثق ، وبالتالي أقدر على مقاومة عوامل الخراب المختلفة . لأنها تحمل ثقلاً هائلاً ،

مركزاً على مساحة صغيرة نسبياً . وسنبحث دلالة هذه الملاحظة البالغة الأهمية فيما يلي .

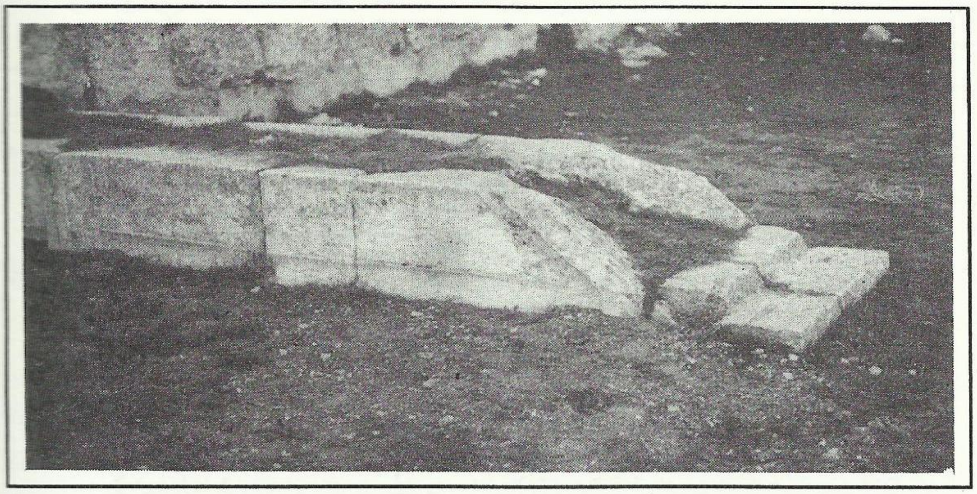

أســـاس المنبـــر

القسم الثاني : رواق محيط بالجهات الثـــلاث الأخريات . مفتوح على بيـــت الصـــلاة ببـــابين معقودين . والرواقان يلتقيان عنـــد الرتـــاج ، أي المدخل الرئيسي . وهو عبارة عن دخلة عميقـــة . ما تزال قائمة بكافة عناصرهـــا تقريبـــاً . علـــى جداريها الداخليين ، من الجانبين ، نقيشة فيها قوله

تعالى:﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. غنما يعمر مساجد الله مَن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. صــدق الله رب العالمين﴾. وفيما خلا جسم المدخل الرئيسي، فإن الرواق والسور الموازي له في حالة خراب شبه كامل. عدا عدة مداميك من أساسه. أما السور الجنوبي فإنه ما يزال قائماً.

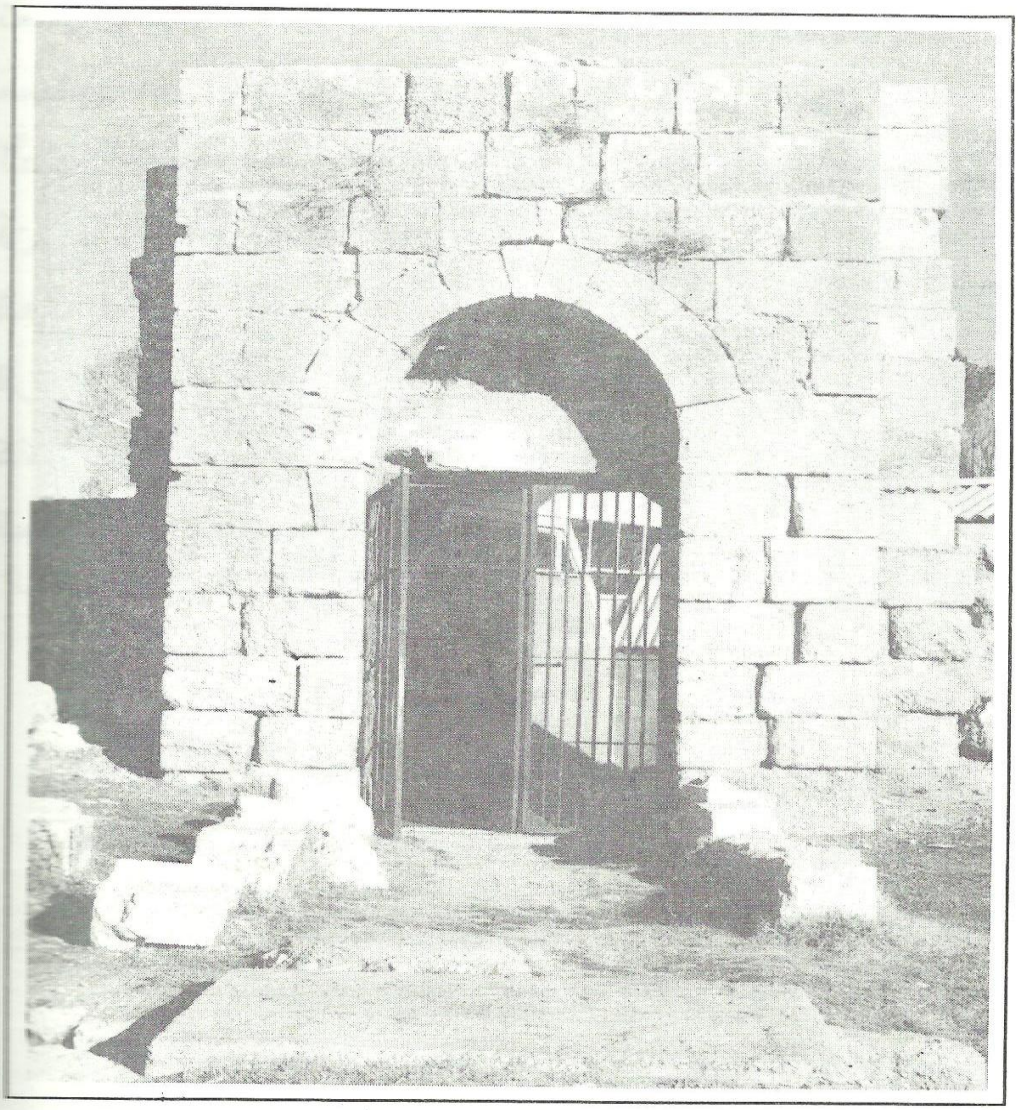

المدخل الرئيسي من الداخل

القسم الثالث : صحن أو باحة سماويّة . يشغل ما بقي من إجمالي مساحة المسجد . يخترقه ، بخط

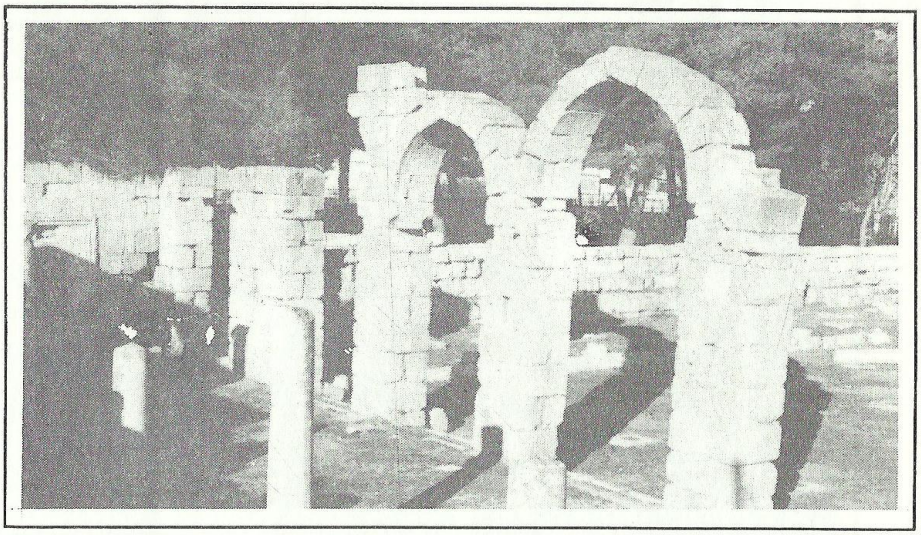

ما بقي من القناطر التى تفصل بيت الصلاة عن صحن المسجد

مائل، قناة ماء . مبنيّة بالحجر . ما تزال بحالة جيدة. ولعلها بديل عن البركة ، التي تتوسط المساجد عادة ، لوضوء المصلين. والقناة تستقي من البركة المجاورة. وتخرج من المسجد من الناحية المقابلة . لتصب في النهر الخارج من البركة . وقد كانت جارية حتى وقت قريب .

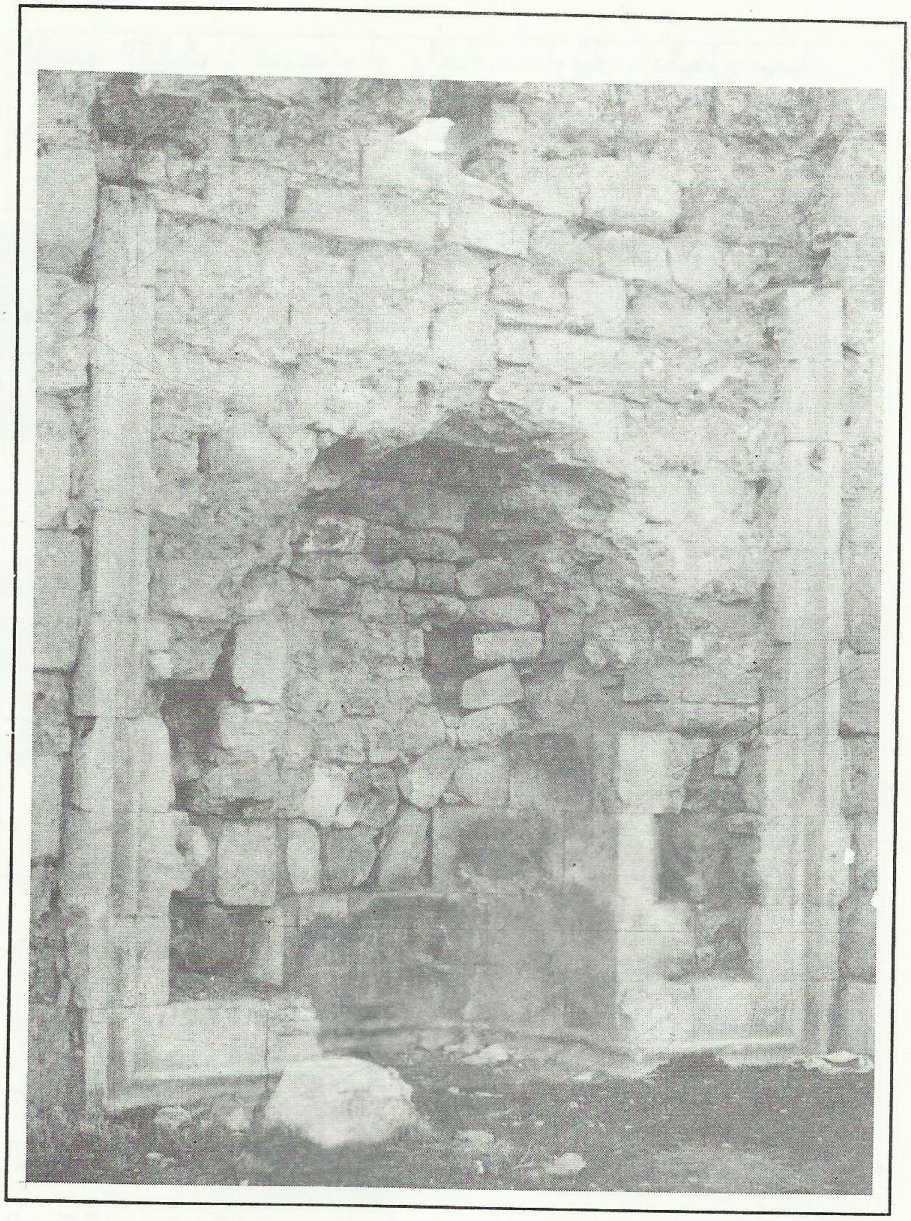

محـــــراب المسجد

والجدير بالذكر، أنه كان إلى جنب هذاى المسجد من شرقيّه إلى مسجد آخر صغير. يتحتل جزيرة في قلب البركة. والكاتب يتذكر جيداً خرائبه. وقد كانت قائمة إلى ما قبل زهاء الثلاثين عاماً. ولعلها نُهبت، فيما نَهب من آثار كبيرة، إبان فترة الفوضى التي رافقت الحرب الأهلية.

٣ ـ تاريخ المسجد

الدائر على الألسنة لاسم المسجد اليوم اثنان:

ـ مسجد الظاهر بيبرس.

ـ مسجد رأس الإمام الحسين عليه السلام.

ومما لا شك فيه أن لكل من هذين الاسمين مستواه. أولاً من حيث السبب الكامن وراء بناء المسجد بناءه الأساسي. وثانياً مَن تولى بناءه. وثالثاً، من حيث أعمال الترميم أو التجديد التي

توالت عليه خلال العصور.

والاسم الأول هو المدوّن في سجلات مديرية الآثار. وهو نسبة إلى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري (حكم: 658ـ 676هـ/ 1260ـ 1277م).

لكن الذي يؤخذ من كل الأدلة والوثائق التي بين أيدينا اليوم، أن الظاهر بيبرس لم يبنِ المسجد بالتأكيد. وإنما جُدد في زمانه. فابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، المتوفي سنة 684هـ/ 1285م، يقول في (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام زالجزيرة 2/ 2/ 556) أن الظاهر جدد المسجد وأضاف إليه نوافذ. وابن شداد مؤرخ معاصر اذن ، فلا مناص من ألأخذ بقوله إجمالاً.

لكن نقيشة حجرية، موجودة حتى اليوم في خرائب المسجد تقول ما نصّه: (عمّر هذا

المسجد المبارك، العبد الفقير إلى الله سبحانه وتعالى، بلبان الرومي الداوادار الظاهري السعيدي. ابتغاء رضوان الله تعالى والقربة إليه. ليكتسب الأجر والثواب. وهنو ذخر له عند الله سبحانه وتعالى. وكمل ذلك في شهور سنة ست وسبعين وستمائة بمباشرة العبد الفقير إلى الله حسن بن محمد الملكي الظاهري السعيدي. ونظر العبد الفقير عباس). أ﴾ أن أعمال التجديد كملت في العام نفسهالذي توفى فيه الظاهر بيبرس. وبلبنان هذا كان دواداراً (صاحب دواة = رئيس ديوان) للظاهر بيبرس. ومن بعده لولده الملك السعيد بركة خان. وتقول نقشية ثانية مفقودة. ولكنها منقولة نقلاً موثّقاً: (جدد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدنيا والدين بركة قان قسيم مولانا أمير المؤمنين خلّد الله سلطانه وأعزّ

أنصاره بن السلطان بيبرس البندقداري قدّس الله روحه وذلك بتاريخ مستهلّ ذي الحجة عام سبع وسبعين وستمائة.

وهذا كل ما يبن أيدينا حتى الآن من وثائق، ما يتعلق بتاريخ المسجد.

٤ – ما نستنتجه من هذه الوثائق.

نأخذ من مجل هذه الوثائق عدة أمور

الأول: الأرجح أن كلاً من النقشتين المذكورتين ترجع إلى أحد المسجدين: فالمسجد الكبير، والمسجد الصغير الذي قلنا إنه كان قائماً على جزيرة وسط البركة. واحتمال أن تكونا، كلتاهما، متعلقتان بالمسجد الكبير هو احتمال ضئيل جداً. ذلك أنه من المُستبعد أن يحتاج المسجد نفسه إلى تجديد، بعد عشر سنوات من تجديد سابق. إلا أن تكون هناك أسباب سياسية.

وراء وضع النقشية الثانية. أو أن الملكالسعيد قد أمر ببعض الإضافات على أعمدة التجديد، وما إلى ذلك.

الثاني: أنه لا علاقة مباشرة للظاهر بيبرس بالأعمال التي جرت على المسجد، لا تأسيساً ولا تجديداً. إذن فالاسم الذي ينسب المسجد إليه لا أساس له من الصحة. وهو وهم أو ارتجال دون دليل.

الثالث: من الم]كد أن تأسيس كلا المسجدين، الكبير والصغير، يعود إلى ما قبل الأعمال التي ذكرتها الوثائق الثلاث بمدة طويلة. ذلك أن بناء شيد الأحجار الصلبة، لن يحتاج إلى تجديد إلا بعد أمد طويل. فهذه الأبنية تبقى قروناً طويلة، دونما حاجة إلى صيانة أو ترميم. والآثار القديمةلا في المنطقة شاهد على ذلك. وعليه، فيمكننا

بكامل الثقة أن نرتفع بتاريخ تأسيس المسجد، بل المسجدين، إلى زمان أبعد بكثير من أواسط القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. أي تاريخ الوثائق الثلاث التي عالجناها آنفاً.

إذن، فكل ما بين أيدينا من وثائق ليس له أدنى علاقة بتأسيس المسجد: متى أُسس؟ من أسسه؟ ولماذا؟ الأمر الذي يُبقي هذه الأسئلة مفتوحة على البحث.

٥ ـ لماذا أُسس المسجد؟

والسؤال الذي يبدو لنا أكثر الثلاثة أهميّة هو: لماذا أُسس هذا المسجد؟ وهو سؤال قد يبدو لأول وهلة غريب. ذلك أن المساجد تُبنى وتَشاد لغرض معلوم. والسؤال عنه تجاهل. لكن ما يجعل السؤال لهذا المسجد بالذات وجيهاً، بل ضرورياً، هو أنه شيد بعيدً عن العمران. ومن

المعلوم أن المساجد إنما تُشاد في قلب المحال المسكونة العامرة. لتكون قريبة من المصلين. إلا أن يكون هناك سبب خاص، يدعو لإشادتها بعيداً عن العمران. كأن يكون للمكان قدسية خاصة. أو تثبتاً وتخليداً لذكرى جليلة، وما إلى ذلك. إذ ذاك يسقط الاعتبار الأساسي، لحساب الغرض الآخر،. ومثل هذا غير عزيز ولا نادر. والعارفون بطبوغرافية (بعلبك) القديمة، يعرفون أن سور المدينة الجنوبي كان يبعد عن مكان المسجد ما يقل قليلاً عن الكيلو متر.

إذن، لماذا شيد المسجد في هذا المكان بالذات؟

هنای تأتي المأثورات الشعبية لتقول، إن المسجد شيد على هذا المكان بالذتا، حيث وُضع رأس الإمام الحسين عليه السلام، وهو يحمل من (**كربلاء**) إلى (**دمشق**).

ومن المعلوم أن للمأثورات الشعبية، المتناقلة

شفوياً، من جيل إلى جيل، هي عموماً بريئة، وخالية من الأغراض، وغير متحيّزة، وحرة أي غير خاضعة لهوى السلطة. التي حرصت ذائماً على أن تحتكر التاريخ المكتوب لنفسها. وأن توجهه لما يتناسب مع سياستها ومع أغرض وأهواء سادتها. ولذلك فإننا نجد فيها، أي في تلك المأثورات، ما لا نجده في كتب التاريخ الرسمي.

هذا التفسير يبدو منسجماً مع جملة أمور:

الأمر الأول: من المشهور والثابت معاً، أن الركب الذي كان ينقل السبايا ورؤوس الشهداء قد نزل (بعلبك). ونُظّم له استقبال حافل. شارك فيه أهل المدينة المخدعون.

الأمر الثاني: من المقبول، بل المرجّح، أن الركب المتعب من طول السفر، قد آثر النزول في المكان الذي شيد عليه المسجد فيما بعد. حيث

الماء الغزير البارد، والظل الوارف. خصوصاً وأن مروره صادف أواسط فصل الصيف (أواخر تموز أو أوائل آب). نقول، آثر ذلك على النزول داخل المدينة، التي كانت يومذاك بلدة مزدحمة وذات أزقة ضيّقة.

الأمر الثالث: الظاهر أن الركب، وهو يتحرك صوب (دمشق) كان يتجنّب النزول بين سكان المدن والقرى التي تقع في طريقه. ربما دفعاً لتجمع الفضوليين. أو تكاثر الأسئلة حول هوية السبايا وأصحاب الرؤوس، أو لأي سبب آخر. ومن ذلك أن نزوله (حلب) كان عاى تلة قريبة من المدينة، تُعرف اليوم بـ(جبل الجوشن)، عليه شيد فيما بعد مشهد آخر لرأس سيد الشهداء عليه السلام.

الأمر الرابع: إن محبي أهل البيت عليهم السلام قد اهتموا اهتماماً خاصاً ببناء المشاهد،

حيثما نزل الركب، من أول حدود (الشام) على نهر الفرات إلى قلب مدينة (دمشق). ومن ذلك:

* مشهد الحسين عليه السلام في بلدة (بالس) على شط الفرات، التي عُرفت فيما بعد باسم (مسكنة) (ابن شداد الأعلاق الخطيرة: القسم الأول/ 178). وقد غمرت مياه الفرات البلدة بعد بناء السد.

*مشاهد (جبل الجوش) الثلاثة: مشهد الحسين، ومشهد المحسن، والمشهد الأحمر. وهي معروفة مشهورة.

*مشهد للرأس الشريف في (حماة) يُعرف اليوم باسم (جامع الحسين). والجدير بالذكر أن أول من بنى هذا المشهد أو الجامع، هو نور الدين محمود بن زنكي. وما تزال النقيشة التي تؤرخ لبنائه على أحد جدرانه

(كامل شحادة: مآثر نور الدين محمود زنكي العمرانية في حماة. منشور في (الحوليّات الأثرية)، المجلد الرابع.

*مشهد للامام زين العابدين في (حماة) أيضا. (الشيخ أحمدالصابوني: تاريخ حماة/ 185).

*مشهد رأس الحسين عليه السلام في (دمشق) شرقي الجامع الأموي. وهو الآخر معروف مشهور.

فأنت ترى أن القوم لم ينزلوا منزلاً، إلا وبُني عليه فيما بعد مشهد. وغريب بعد هذا أن تكون (بعلبك) الاستثناء الوحيد. وهي التي نزلوها ذلك النزول العريض الصاخب.

الأمر الخامس: لاحظنا آنفاً، في الفقرة المخصصة لوصف المسجد، أنه يخلو من مأذنة.

ووعدنا هناك أن نتكلم في دلالة ذلك، في مكانه المناسب. وهذا هو.

ومن المعلوم أن للمأذنة معلم أساسي في هندسة المسجد، أي مسجد. بحيث أننا لا نعرف واحداً يخلو منها. وليُراجع كل منها في ذهنه ما يعرفه من مساجد، قديمها وحديثها. وسيجد حتماً أنها جميعها ذات مآذن. باستثناء هذا. أما الشاهد فإنها تخلو عادة منها، لأنها لا تُشاد من أجل الغرض نفسه، الذي تُبنى من أجله المساجد. بل تخليداً وتثبيتاً لذكرى غالية، تتصل بإيمان مَن أسسوها وولائهم. فمن هنا نقول، إن هذا البناء هو في الأساس مشهد، أُعطي اسم المسجد، بعد أعمال التجديد التي جرت عليه، ممت وصفناه آنفاً. ولا مانع من ذلك، فهو مزيد تشريف له. والظاهر أنه أُضيف إليه المحراب والمنبر، من ضمن تلك الأعمال. ولو أنه كان ذا مأذنة في

هندسته الأولى، لما كان من المتصوّر أن تُلغى في أعمال التجديد تلك. ونظير هذا وشبيهه نجده في (مسجد الحسين) في (حماة). الذي لا ريب أنه في الأساس مشهد. ولكن نور الدين محمود الشهيد عندما جدده بعد السنة 552هـ/ 1157م سمّاه (مسجد الحسن)، وهو الاسم الذي مايزال معروفاً به حتى اليوم. كما تشهد بذلك النقيشة التي ما تزال على جداره حتى اليوم (مشاهد ومزارات ومقامات أهل البيت عليهم السلام في سورية/ 89).

فهذا جواب على سؤال (لماذا أُسس؟).

٦ ـ مَن أسس المسجد ومتى؟

لكن هذا الجواب يطرح بدوره سؤالاً هو: من أسس المسجد ومتى؟

والذي يطرح السؤال، ينطلق من أن المنطقة كانت يوم كربلاء في غاية البعد عن أهل البيت عليهم السلام. بل معادية لهم، بتأثير السياسة الأموية، التي عملت كل ما في وسعها لربط الناس بالبيت الحاكم دوان سواه. وذلك أمر معلوم. لكن الحقيقة أن هذا التصور للناس وحوافزهم وولائهم بعيد جداً عن الصواب. ويُغفل تفصيلات مما كتمه التاريخ الرسمي. وبذلنا غاية الوسع في بيانه والاستدلال عليه في كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية (ونحن نلخّص فيما يلي ما نراه موضع الحاجة.

ذلك أنه في الوقت الذي حدثت فيه واقعة (كربلاء)، كانت الجالية الهمدانية الكبيرة قد نزلت بالفعل مدينة (حمص) و (جبال الظنيين)، التي تُعرف اليوم بـ(الضنية). وأطراف (بعلبك) أي قريتي (إيعات) و (تمنين) والجبال

شرقي (بعلبك)حيث قريتي (الجبّة) و (عسال الورد) وما والاهما. ولا شك أن تلك الجالية الكبيرة في أطراف (بعلبك) كانت على علاقة بالمدينة المجاورة. نظير العلاقة الانتاجية والمعاشية التي تنشأ بين أي مدينة وجوارها وريفها. ومما يدل على قوة هذه العلاقة، أن الباب الجنوبي للمدينة ظل حتى القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، يسمى (باب همدان). أي الباب المُفضي إلى حيث يقيم ابناء هذه القبيلة. التي عُرفت بولائها الخالص للإمام أمير المرمنين عليه اللسلام وبنيه. ولمن يرغب في تفصيل هذا الإجمال، ومراجعة الفصل المخصص لـ(بعلبك) في كتابنا المذكور.

فمن هنا نقول، إن تأسيس المشهد الأول على علاقة بهذه الحقائق التاريخية. التي كان لها أبعد الأثر على هوية المدينة، بل المنطقة إجمالاص فيما

بعد. وقد عرفنا مما سبق أن مَن جدد باءه فيما بعد قد اتبع ما كان موجوداً وقائماً بالفعل. ولذلك نقول أيضاً، إن بناء ذلك المشهد الاول يعود إلى فترة مبكرة جداً. وأن الذين احتفظوا في وجدانهم بذكرى من نزلوه، قد عملوا على تخليد الحدث، الذي انغرس عميقاً في وجادنهم. فأقاموا المشهد، ليكون تعبيراً عن أنهم لن ينسوا، وعن ولائهم الذي لن يأخذ منه الزمان.

خلاصة القول:

إن تسمية هذا المسجد باسم مسجد (بيبرس)، كما هو في قيود مديرية الآثار،لا أساس له من الصحة، فضلاً عن أنه من الثابت أنه مبني قبل السلطان بيبرس وعصره بزمان طويل.

في المقابل: فإن الماثورات الشعبية التي تثول أنه في الأصل مشهد رأس الإمام احسين عليه السلام، ثم أُعطي فيما بعد، أي بعد تجديده ، اسم المسجد هي مأثورات ذات سند تاريخي قوي، لا يمكن لمنصف متحرر، أن يتجاهلها. وهذا ليس النموذج الوحيد كما عرفنا مما سبق.